خمس ساعات فوق السحاب

تختلف قيم الحياة عند الناس، وتتنوع تبعا لذلك طرق استمتاعهم بها ، فهذا يجد لذة الحياة فى أن تكون على وتيرة واحدة فان تبدلت يوما استنكر ذلك واستاء ، وذاك يجد متع الحياة فى التنقل ويأبى إلا أن يكون للحياة عنده بين الحين والحين صورة جديدة تبهج النظر وتشفى الصدور وتنير العقول وهو بهذه الصورة الجديدة للحياة يأبى إلا أن تكون باسمة لا كدر فيها ولا شائبة .

وبهذه الرحلة التى أحدث القراء الكرام عنها أستطيع أن أقول إننى ذلك الشخص الذى جمع بين النظرتين للحياة فذاق حلوها ومرها أو كاد ، فان خدمتى للتعليم فى منطقة (بلاد النوبة) زهاء أحد عشر عاما على وتيرة واحدة ثم سفرى لأمارة (الكويت) على متن الرياح لتبديل مفاجىء للحياة أحدث فى نفسى لذة غريبة جعلتنى أبدأ الحياة بعمر جديد وأن أبدأها مرة أخرى من أول الدرج .

وهاهى السيارات الانيقة التابعة لشركة الخطوط الجوية العالمية للنقل T.W.A تنقل أعضاء البعثة المصرية للتعليم بامارة الكويت متجهة نحو ميناء فاروق الجوى فى الصباح الباكر ، وهانحن بعد إجراءات جمركية وصحية أمام إحدى طائرات الشركة التى تتأهب لاستقبال ضيوفها من كل جنس ولون وهاهى حركة موظفى الطائرة تؤذن أنها بعد دقائق قليلة سوف تحلق فى الجو متجهة نحو (البصرة) إحدى مدن العراق .

وإنك الآن فى داخل الطائرة فى ردهة أنيقة حوت أربعين راكباً يجلسون على مقاعد وثيرة كتلك التى توجد فى أعرق القصور وتلك نوافذ صغيرة على جانبى الردهة يستطيع الركاب على الجانبين أن ينفذوا بأبصارهم إلى خارج الطائرة ليستمتعوا بآيات الله وآلائه ، فالجبال الراسيات تراها على ارتفاع تسعة آلاف قدم . كأنها أحجار صغيرة متناثرة والمدن بما فيها من منازل وطرقات كأنها لعب الأطفال أو كأنها خريطة فى كتاب صغير . فاذا ارتفعت بك الطائرة فوق السحاب الذى يعلو الجبال فأنت بين قطن مندوف متناثر أو أنت بين زبد البحر المتكاثر إلى مالا نهاية .

وهنا تتجلى قدرة الخالق العظيم ويتملكك شعور جديد وتوقن عندئذ أنها الراكب الكريم أنك مخلوق ضئيل جداً بين هذه المخلوقات العظيمة وإنك قطرة فى بحر لجى وذرة فى الفضاء ثم يتدرج بك هذا الشعور إلى معنى جديد وهو أن هذه المخلوقات العظيمة سخرها الله لك فأنت على ضآلتك جسما سيد هذه المخلوقات طالما وضعت نفسك حيث أرادك الله ، وأنت دونها شأناً إذا أنت استخدمت مواهبك فى غير ماخلقت له .

ولا يقطع هذا الخيال البديع الذى تسبح فيه فى معان للحياة جديدة وأنت فى السماء أو لايقطع هذا الحلم اللذيذ الذى تسمو فيه إلى شعور لايدركه أهل الأرض من إخوانك البشر لايقطع هذا الخيال ولا ذلك الحلم إلا صوت جميل من آنسة الطائرة أو مضيفتها (Hostess) والتى خصصت لخدمة الركاب تسألك أو تجيبك بين الفينة والفينة عن كل ماتطلب فى وداعة الأنثى وحيائها وفى أدب جم ودقة فى العمل وقيام بالواجب .

وكم أعجبنى تسميتها (بالمضيفة) لأن هذه الشركة تود أن تشعر ركاب طائرتها بأنهم ضيوف عندها وأن هذه الطائرة ماهى إلا بيت من بيوتهم توفر فيه كل مايتوفر فى مسكن الإنسان من راحة وهدوء وإن هذه الآنسة ماهى إلا ربة الدار أو مضيفتهم تدخل الإيناس فى نفوس الركاب باستجابة رغباتهم بسرعه ودقة تسبقهما ابتسامة جميلة . فهذا طعام الإفطار من كل لون مأكلا ومشرباً تتقدم به المضيفة بالمجان فى ساعة معينة لكل راكب فى صينية عجيبة وهذا راكب يطلب دواء وهذا آخر يطلب منها أن تعطيه بيانات خاصة عن المكان الذى تعلوه الطائرة إلى غير ذلك من وسائل الراحة التى يحتاج إليها المسافر فى الطائرة .

هاهى الطائره تعبر الصحراء الشرقية فى نصف ساعة يظهر خليج السويس وتظهر القناة خطاً صغيراً جداً كما يرسم التلاميذ على الورق . وفى نصف ساعة أخرى تعبر الطائرة صحراء سيناء فتظهر جبال سيناء العالية من بين السحب الكثيفة ثم نحن الآن فوق خليج العقبة وتبدأ الطائرة بعد ذلك تحلق وتسير فوق صحراء العرب مخترقة

هذه الصحراء إلى الجنوب الشرقى ومتجهة صوب البصرة .

ولست أدرى ماالذى جعلنى أسبح بخيالى إلى غور بعيد فأجد خط الشلال (حلفا) ماثلا أمامى وأنا بالطائرة — إنه تداعى المعانى يتحكم فينا وإنه هو الذى ربط بين هذا الخط الجوى السريع والذى يتناسب مع سرعة العصر الذى نعيش فيه وبين خط (الشلال حلفا) الذى يأبى إلا أن يجعل أهل هذه المنطقة يعيشون فى (الماضى) السحيق مع أنهم فى القرن العشرين . وكيف لايذكر الإنسان طريقاً ذرعها جيئة ودهابا أحد عشر عاما بين القاهرة وعنيبة ولابد أن يقضى فى كل مرة فى السفر ثلاثة أيام بلياليها بينما قطعنا فى هذا الصباح الصحراء الشرقية ثم شبه جزيرة سيناء فى ساعة واحدة ووصلنا العراق بعد خمس ساعات فقط . فلله در العلم الذى جعلنا نطير فى الجو فنبلغ أهدافنا فى ساعات ويالقسوة الظروف على سكان (بلاد النوبة) الذين يعيشون فى الماضى بتلك البواخر البطيئة التى تحاكى السلحفاة فى سيرها .

وهل تريدنى أيها القارىء الكريم أن أهبط بك على أرض (البصرة) قبل أن أحدثك عن طعام الإفطار فى الطائرة ! !

فهاهى (المضيفة) الرشيقة تستأذنى وتستأذن كل راكب (طبعاً) فى أن تضع بيديها وسادة صغيرة على فخذى ! ! وصبراً فلا تأخذك الدهشة فانها إذ تضع الوسادة تعد مائدة سوف تحمل إليها حالا (صينية) من مادة البلاستيك قد أبدع الصانع فى صنعها فحفر فيها ماتستطيع ثلاثة عشر قطعة صغيرة من الأوانى أن تستقر فيها بسهولة ويسر . وأود أن أعفيك أيها القارىء الكريم عن معرفة ماحوت هذه (الصينية) من أكل وشرب حتى لاأحرم أعصابك من هدوئها وراحتها ولكنك يجب أن تعلم إجمالا أن ماقدم فى الإفطار أمشاج مما خلق الله من الفيتامينات المختلفة . والتهمتها جميعاً بدون وعى لأننى ماكنت آكل بعقلى الذى شغلته دقة (الصينية) ودقة ذوق رجال الشركة واستطاعت بطنى أن تغافل عقلى المنشغل فازدردت كل ماحوت (الصينية) إلا من الأوانى نفسها ! . . .

وأما زميلى الذى كان يجاورنى فى الجلسة (الأستاذ يحيى أبو حمده) عضو البعثة وأستاذ الرسم بها فقد بهره منظر (الصينية) الدقيقة فأخذ يعمل بقلمه على الورق يسجل فيه دقة ذوقها وكان ذلك بعد أن التهم ماعلى (الصينية) من أكل وشرب بدقة فائقة لاتقل عن دقته فى رسم (الصينية) وما أظنه أكل ماأكل لمجرد الأكل مثلى وإنما ليستطيع أن يرسم (الصينية) على الطبيعة مجردة من كل مايحفى إبداعها وزينتها ! .

ونعود مرة أخرى إلى (المضيفة) أو هى التى تعود إلينا فتطلبنا منا أن نربط أنفسنا بالأحزمة الملاصقة للمقاعد استعداداً لهبوط الطائر على أرض (البصرة) فنفذنا أمرها طائعين لأننا نرجو السلامة . وهاهى الطائرة تهبط بالتدريج من علو تسعة آلاف قدم وكلما هبطت الطائرة هبطنا معها بقلوبنا وشعرنا فى كل مرة بدوران بسيط هو كل مافى ركوب متن الرياح من صعوبة إن صح هذا التعبير .

وهانحن نشعر بعجلاب الطائرة تحتك بأرض المطار وتسير عليها مسافة طويلة وهانحن نعود إلى الارض مرة أخرى لنسدب عليها بين إخواننا أهل الارض تاركين السماء بصفائها وأحلامها وتاركين أيضاً تلك الروح التى سمت بأفكارنا فجعلتنا مع الله فى سمائه وبين آياته وآلائه ، نعم تاركين كل ذلك لنرتبط مرة أخرى بالارض التى هجرناها خمس ساعات ولنعود أيضاً إلى أفكارنا المادية التى هى من وحى الارض بل هدف كل من يعيش عليها فى هذا الزمن المادى البحت .

ووداعا سفينه الهواء وأنت تتجهين صوب (الهند) حتى نكون فى جوفك مرة أخرى بمشيئة الله بعد تسعة أشهر نحيا فيه خمس ساعات أخرى فى السماء لنتطهر من رجز الارض ونعود إلى الصفاء ولو لمدة قصيرة .

صالح جمال محمد

ناظر المدرسة المباركية الثانوية بالكويت

اطبعوا مطبوعاتكم فى

مطبعة دار التأليف

٨ شارع يعقوب بخصر